الفصل الخامس

التنظيمات الإدارية والاقتصادية لليهود في الأندلس

المبحث الأول

أولاً: التنظيم الإداري لليهود في الأندلس

أ- رئيس الطائفة اليهودية (الناسي)

قام الأمير عبد الرحمن الأول (138-172هـ=755-788م)، بتعيين الأمير القوطي أرطباس رئيساً لطائفة النصارى في الأندلس(1). ومنذ ذلك الحين مال الحكام الأمويون إلى تعيينِ النصارى من ذوي المكانة في هذا المنصب، بناءاً على اقتراحِ أعضاء طائفتهم، أو بسبب تقرب هؤلاء الأشخاص منهم(2). وكذلك كان خلفاء أرطباس على هذا المنصب، رؤساء للطائفة النصرانية عبر الأندلس بأكملها(3). وكان رئيس النصارى هذا يحملُ اللقب الروماني قومس (COMES)(4)، ويمثّلُ إخوانه في الدين أمام الحكومة، وكان مسؤولاً عن دفع النصارى للجزية المفروضة عليهم، ويشرف على كلِّ شؤون الطائفة، ويقف على رأسِ الإدارة القضائية التي تحكم في القضايا بين أعضاء الطائفة في الأمور المدنية باتباع القانون القوطي (FUERO JUSGO). وكان جباة الجزية المحليين والقضاة يعملون تحت إشراف القومس. وكان هو كبير قضاة النصارى. وكانت الحكومة الإسلامية بدورها تساعد أولئك المسؤولين عن الطائفة النصرانية في تنفيذ وظائفهم، وجمع الضرائب المفروضة لاحتياجات الطائفة الخاصة. وكان إطار العمل هذا قد استمرّ طوال حكم بني أميَّة للأندلس(5).

ومثلما قام الحكام الأمويون بتعيين القومس ليكون رئيساً للطائفة النصرانية، قاموا كذلك بإيجاد منصب لقائد الطائفة اليهودية. وكان لقب صاحب هذا المنصب هو"ناسي" (NASI)(6)، وكان أسلوب تعيينه مشابهاً لتعيين القومس. وفي بعض الأحيان كان الحاكم المسلم يعيِّن يهودياً في وظيفة حكومية مهمة، وإذا ما حاز هذا اليهودي على رضا الحاكم، فإنه يقوم باستدعاء أكابر اليهود، ويأخذ موافقتهم على تعيين ذلك الموظف الكبير ناسيَّاً لكل يهود الأندلس. وفي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كان الناسيَّان اللذان تعاقبا على هذا المنصب، وكتب عنهما المؤرِّخ اليهودي إبراهيم بن داود، قد تمَّ تعيينهما من قبل الحكومة، وبناءاً على مبادرتها(7). وكانت وظيفة الناسي مشابهة لوظيفة القومس، حيث كان يمثِّلُ اليهود أمام الحكام المسلمين، ومسؤولاً عن الجزيةِ المفروضة عليهم، ويقوم بدور كبير القضاة في طائفته(8). ولم ينس

---

1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص61.

2) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.78.

3) ينظر: ابن حيان، المقتبس، نشر: ملشور م. أنطونية، ص92، 102؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، م2، ص15، 33.

4) القومس (COMES) كلمة لاتينية تعني نديم الملك، وهي موجودة في اللغات الأوربية، وتعني حاكم منطقة متمتع باستقلال تام أو محدود. ينظر: البكري، المسالك والممالك، "الجزء الخاص بالأندلس وأوربا"، ص99، (هامش المحقق).

5) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.78

6) HAIM BEINART, CORDOBA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.222; ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.79; الموسوعة العبرية، م26، ص383.

7) ASHTOR, THE JEWS, VOL. 3, P.79.

8) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.79.

الشعراء اليهود المعاصرون لحسداي بن شبروط، والذين تغنوا به، أن يذكروا سماته وخصاله كقاضي. وعندما عزم حسداي على محاسبة سكرتيره مناحيم بن ساروق، مارس وظيفته ككبير للقضاة، وأصدر حكماً ضده، على الرغم من أنَّ المتهم لم يكن حاضراً[1].

وسار أمراء الطوائف على الطريقة نفسها في تنظيم شؤون اليهود، حيث عين كلٌ واحدٍ منهم رئيساً لليهود في إمارته، وظلَّ رؤساء الطوائف اليهودية في الأندلس يحملون أيضاً لقب "الناسي" الذي كان يطلق من قبل على رؤساء اليهود في المشرق. وطلب بعض رؤساء اليهود من قادة اليهود ورؤساء مدارسهم في العراق أن يمنحوهم ألقاباً تليق بالخدمات الكبيرة التي يقدمونها إلى طوائفهم، فمنح بعضهم لقباً جديداً هو "الناغيد"، وصار هذا اللقب يطلق على إسماعيل بن نغدلة، وولده يوسف من بعده[2]، اللذان تعاقبا على رئاسة الطائفة اليهودية في غرناطة[3]. ويصف الشنتريني أهمية هذا اللقب في معرض حديثه عن إسماعيل بن نغدلة فيقول "وتُسمَّى من خططهم الشرعية بالناغيد، معناه المدَبِّر بالعربية، خطة تحاماها قدماؤهم، وتطأطأ عنها قديماً زعماؤهم، اجترأ هو عليها[4].

لكن لقب الناسي كان أكثر تأصلاً في الأندلس، فبعد مدة من الزمن عاد رؤساء الطائفة إلى استخدامه. وكان تعيين أولئك (الناسيم)(*) قد صار ممارسة مقبولة، وظلَّت واجباتهم دونما تغيير. وكما في الأوقات السابقة فإنهم عملوا كممثلين لطوائفهم، وقاموا بمحاولاتٍ من أجل رفاهية الطوائف والأفراد، وكانوا مسؤولين عن دفع الجزية. وقاموا بدور كبار القضاة[5].

والظاهر أنَّ منصب الناسي في عصر الطوائف لم يعد مقتصراً على شخصٍ واحدٍ في كلِّ الأندلس، بل صار لكلِّ إمارة أو مملكة ناسيَّاً أو رئيساً لطائفتها اليهودية.فقد شغل رئاسة الطائفة اليهودية في إشبيلية إسحاق بن باروخ البالية الذي عمل أيضاً منجماً لدى المعتمد (461-484هـ=1068-1091م)[6]، وخلفه على هذا المنصب، وفي عهد المعتمد أيضاً إبراهيم بن مير بن المهاجر[7]. وكان رئيس طائفة بجانة في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي هو صاموئيل هاكوهين بن جوزية الذي يعود أصله إلى فاس بالمغرب، وكان ضليعاً في الشريعة اليهودية، وله مراسلات مع الجاؤون شعريره في العراق[8]. ورئيسهم في أليسانة في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يُدعى ابن ميمون[9]. وقد تولّى هذا المنصب في منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي في أليسانة أليعازر بن صاموئيل

عن مسؤولية الناسي عن جمع الجزية. ينظر: ابن بلقيس: التبيان، ص38.
[1] IBID, VOL.3, P.80.
[2] IBID, VOL.3, P.80.
[3] ينظر: الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص767؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ص439.
[4] الشنتريني، الذخيرة، ص767.
(*) الناسيم: جمع لكلمة (ناسي) باللغة العبرية.
[5] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.80
[6] BROYDE, SEVILLE, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.208
[7] HAIM BEINART, SEVILLE, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1201
[8] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.319
[9] ابن بلقين، التبيان، ص130-131.

حركا، الذي كان معاصراً للجاؤون عمرام رئيس اليهود في العراق، وقد منح هذا الجاؤون في منتصف القرن التاسع الميلادي لقب (الألوف)، ولقب (روش كالا)، وأصبح من أشهر أساتذة مدرسة أليسانة اليهودية[1].

ب- كبير الأحبار (الحاخام الأكبر)

وكان المنصب الثاني الذي يلي منصب الناسي في الأهمية هو منصب كبير الأحبار أو الحاخام الأكبر كما سُمّي لاحقاً[2]. وقد شغل هذا المنصب في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ=912-961م) الحبر موسى بن حنوخ.

قام حسداي بن شبروط بمنح ابن حنوخ منصب كبير الأحبار، إذ أنَّ مناصب الأحبار والقضاة كانت بيدِ النَّاسي، المسؤول الأول في السُّلَم الإداري للطائفة اليهودية في الأندلس، وهذه الصلاحيات التي أعطيت للناسي هي إحدى المؤشرات على التسامح الإسلامي مع اليهود. وتعاون كل من حسداي وابن حنوخ على تنظيم شؤون اليهود في الأندلس، وتطوير المدرسة اليهودية في قرطبة[3]، فاستقدموا إليها عدداً من أحبار اليهود[4]، وجلبوا إليها من المدارس اليهودية في العراق نسخاً ثمينة من التلمود[5]، وسرعان ما حصلت هذه المدرسة على شهرةٍ كبيرة، بحيث أنَّ الطلاب اليهود بدأوا بالتدفق إليها من مختلف مدن الأندلس والشمال الأفريقي، حتى أصبحت مركزاً رئيساً من مراكز التعليم اليهودي في العالم، ينافس مدرستي بومبديتا وسورا في العراق[6]، ولم يعد يهود الأندلس بحاجة إلى إرسال أسئلتهم الدينية إليهما، وإنتظار الجواب لشهورٍ عِدَّة[7].

وعند موت موسى بن حنوخ حوالي سنة (360هـ=970م) ثار صراعٌ في قرطبة على من يخلف موسى، ويتولى منصب كبير الأحبار في الأندلس.ولم يكن من الضروري الانتظار لوصولِ حبرٍ من مكانٍ بعيد، فقد أعدَّت المدرسة اليهودية في قرطبة عدداً من الأحبار، كان أبرزهم حنوخ بن موسى بن حنوخ، ابن الحبر المتوفى، ويوسف بن أبي ثور، الذي كان عالماً ضليعاً من يهود ماردة، وقد حصل على تعليمه الديني من مدرسة قرطبة، وإضافة إلى علمه، كان شاعراً، وقد أُدخلت أشعاره الدينية فيما بعد في شعائر اليهود[8]. وبطلبٍ من الخليفة الأندلسي الحكم الثاني (350-366هـ=961-976م) الذي كان يجمع كلَّ أعمال الأمم في مكتبته، أعدَّ ابن أبي ثور ترجمة للتلمود باللغة العربية[9]. وبشكل عام كان ابن أبي ثور نوعاً

---

1) HIAM BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.11, P.550.
2) ROYMOND P. SCHEINDLIN, THE JEWS IN MUSLIM SPAIN, THE LEGACY OF MUSLEM SPAIN, SALMA KHADRA JAYYUSI (EDITOR), P.190.
3) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.619.
4) عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص24.
5) الموسوعة العربية، م26، ص398.
6) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.619.
7) ابن أبي أصبعية، أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، (بيروت، مكتبة الحياة، 1965م)، ص498.
8) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.620
9) عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص35؛ IBID, VOL.2, P.620

جديداً من الأحبار، حيث كان يمتلك معرفةً في العلوم الدنيوية، بينما كان حنوخ يُمثِّلُ النمط التلمودي القديم، ولا يهتمُّ إلاَّ بالعلوم الدينية[1].

وانقسم يهود قرطبة إلى جماعتين، الأولى تريدُ أنْ يرث حنوخ منصب أبيه والأخرى تُفضل أن يتولّى هذا المنصب الحبر يوسف بن أبي ثور[2]. وقد رجحت كفة حنوخ، لأن الناسي حسداي بن شبروط رئيس الطائفة اليهودية في الأندلس، والذي له القول الفصل في تعيين كبير الأحبار فيها، كان يفضِّلُهُ على ابن أبي ثور[3]. وأصبح حنوخ بن موسى كبيراً للأحبار في الأندلس، أو الحبر الأعظم كما كان يُسمّى أحياناً[4]. ولكن بعد موتِ حسداي (360هـ=970م) اشتدَّ الصراع في قرطبة على المنصب الحبري ليهود الأندلس، وقام حزب ابن أبي ثور بتحدي الحبر حنوخ علناً، فقام أتباع حنوخ بحرمان ابن أبي ثور كنسياً، ووضعوه خارج الحظيرة اليهودية. وطلبت الجماعتان من الخليفة المستنصر التحكيم في نزاعهما، ووافق الخليفة فتوجّه ممثلو الحزبين المتنافسين إلى منطقة الزهراء، حيث قصر الخليفة، وقد اجتمع كلُّ حزبٍ مع الحبر الذي يؤيده. وقد لاحظ المستنصر أنَّ غالبية يهود قرطبة يناصرون حنوخ، فأخذ قراره لصالحه. وعندما حاول ابن أبي ثور أن يُقنع الحكم بأحقيته في هذا المنصب، قال له المستنصر ناصحاً: "لو أنَّ العرب قد تجهموا بوجهي مثلما فعل اليهودُ معك، لرحلتُ عن الأندلس، إنني أنصحك بالرحيل عن قرطبة[5].واستجاب ابن أبي ثور لنصيحة المستنصر، فرحل إلى إحدى مدن الأندلس البحرية، ثم غادرها إلى الشمال الأفريقي[6].

وأرى أنَّ سبب تفضيل المستنصر لحنوخ يعود إلى اعتقاده بأنَّ وجود حنوخ في هذا المنصب يحقق المصلحة للدولة التي سبق أن جرَّبت أباه، فلم يتسبب لها بأية مشاكل أو متاعب، كما أنَّ في تولّي شخص يؤيّده معظم اليهود، ويفضلونه، مصلحة للدولة، إذ يضمن استقرار الطائفة ويقلِّلُ من الاختلافِ الذي يتعب حدوثه الدولة أيضاً.

توفي المستنصر سنة (366 هـ=976م)، وكان ولده هشام الذي خلفه، ما زال صغيراً، فأدار البلاد محمد بن أبي عامر الذي عُرِف بالحاجب المنصور[7].

قام المنصور بتعيين صانع الحرير يعقوب بن جاو، رئيساً أو ناسياً لليهودِ في الأندلس، ومُنح الناسي الجديد الصلاحيات نفسها التي كان حسداي بن شبروط قد تمتَّع بها، إذ كان يقوم بتعيين الأحبار والقضاة في الطوائف اليهودية، ويتولّى جمع الجزية المقرَّرة على يهود الأندلس، وصار لابن جاو خدماً من اليهودِ تحت تصرُّفه، وعربة تأخذه من قصر الخليفة، فتكبَّر على اليهودِ، وتسلط عليهم، وأعلم الحبر حنوخ الذي ظلَّ كبيراً للأحبار، أنه لو تجرَّأ على اتخاذ القرارات في

---

[1] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.620.
[2] عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص35.
[3] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.620.
[4] BROYDE, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.485; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.620; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.361 .
[5] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.620. عن موقف المستنصر من هذا الصراع، ينظر: عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص35.
[6] IBID, VOL.2, P.620, ينظر: عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص35-36.
[7] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص272-284؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص306.

القضايا القانونية بدون إذنه، فسوف يضعه في قارب دون مجاديف، ويطلقه في عرض البحر[1]. ثمَّ عزم ابن جاو، وهو النصير القديم لابن أبي ثور على تجريدِ حنوخ من منصبه الحبري، واستدعاء ابن أبي ثور الذي كان في الشمال الأفريقي، معتبراً أن الحرمان الكنسي الذي صدر ضده من قبل، كان قراراً ظالماً، وعندما وصلت الدعوة إلى ابن أبي ثور، رفض تولّي ذلك المنصب بمساعدة ابن جاو، وأرسل إليه أنه لا يوجد حبرٌ أصلح من حنوخ لهذا المنصب[2].

وسبب رفضه للتعيين بواسطة ابن جاو في رأيي، علمه بأن ابن جاو المكروه من قبل يهود الأندلس بسبب ترفه وتكبره عليهم لن يستمر طويلاً في هذا المنصب، وسوف يُطرد هو أيضاً إذا ما أُبعد ابن جاو عن منصبه.

توجّه ابن أبي ثور إلى بومبيديتا في العراق، حيث طمح أن يُرَحِّب به كبير الأحبار هناك الحبر حيّ، لكنّه لم يفعل، لأنَّ ابن أبي ثور كان قد تمَّ حرمانه كنسيَّاً في الأندلس، فتوجَّه إلى دمشق، ومات فيها سنة (304هـ=1012م)[3].

أما ابن جاو فقد تبدَّلت أحواله، إذ سخط عليه المنصور، فجرَّده من مناصبه وأودعه السجن[4]، وتبيِّن الرواية اليهودية أنَّ الخليفة هشام مرَّ بالسجن برفقة المنصور، فوقف ابن جاو بالباب حتي يُريَهَم نفسه، وعندما لمحه هشام، سأل المنصور عن سببِ سجنه، فأخبره بأنَّ "الناسيّ" لم يتبرَّع بحصَّةٍ ملائمةٍ من ثرواته للدولة، فأمر هشام بإطلاق سراحه، وإعادته إلى منصبه، لكنَّه لم يتمكن من استعادةِ نفوذه القديم، بسبب عداء المنصور له[5].

وبالرغم من أنَّ المصادر الإسلامية لم تتطرَّق إلى هذا الموضوع، إلاَّ أنه لا يمكن التسليم بأنَّ حاكماً مسلماً في ذلك الوقت يقوم بسجن يهودي لأنه لم يتبَّرع بمبلغٍ ملائمٍ للدولة، إذ لم يعرف عن حكام المسلمين أنَّهم فعلوا ذلك، حتى مع المسلمين اللذين هم أولى بالتبرُّع لدولتهم، فكيف يعقل أن يكون المنصور قد فعله مع يهودي، يُفترض أنه يؤدي للدولةِ خدماتٍ كبيرة بجمعه الجزية المفروضة على اليهود. وهل الدولة التي حاضرتها قرطبة، والتي كانت في ذلك الوقت أغنى وأقوى وأجمل مدينة في الغرب، بحاجة إلى صدقاتِ اليهودِ وتبُّرعاتهم[6]؟! والدولة الإسلامية لا يُلزِمُ قانونها أهل الذِّمَّةِ إلاَّ بالجزية[7]، وقد مرَّ بنا سابقاً، كيف كان المنصور ملتزماً بالقانون الإسلامي، وتوقَّفَ عن شراءِ أرضٍ تابعةٍ لإحدى كنائس أهل الذمَّة في قرطبة، عندما بيَّنَ له الفقهاء المسلمون أنَّ ذلك يخالف الشريعة[8].

---

[1] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.621; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.377.
[2] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.621; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.377; عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص36.
[3] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.621; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.379; عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص36.
[4] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.621; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.379.
[5] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.621.
[6] ينظر: الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص134-135؛ الشقندي، إسماعيل بن محمد، رسالة إسماعيل بن محمد الشقندي في فضل الأندلس، "نشر ضمن كتاب فضائل الأندلس وأهلها"، نشره: صلاح الدين المنجد، (دار الكتاب الجديد، ط1، 1387هـ-1968م)، ص54-55؛ المقري، نفح الطيب، م1، ص205.
[7] ينظر: سورة التوبة، آية: 29.
[8] خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص543-586.

إضافة إلى أن الخليفة هشام كان أضعف من أن يلغي أمراً أصدره المنصور بن أبي عامر[1].

ومن المحتمل أنَّ المنصور قام بسجنه لأنه اختلس من أموال الجزية التي كُلِّفَ بجمعها، وقد بينا سابقاً كيف ارتكب مثل هذه الخيانة يهودٌ آخرون في عصر الطوائف[2].

مات ابن جاو بعد عودته إلى منصبه بمدةٍ قصيرة، ولم تشر المصادر اليهودية أو غيرها إلى الشخص الذي خلفه على هذا المنصب. وظلَّ حنوخ بن موسى في منصبه الحبري إلى أن توفي سنة (405هـ=1014م). عندما انهارت به منصة المعبد التي صعد عليها، ليشارك في أحد الاحتفالات الدينية[3].

أمَّا بالنسبة لمنصب كبير الأحبار أو الحبر الأعظم. فقد عرف من الذين شغلوه غير من ذكروا سابقاً، أبو الفتح أليعازر بن ناحمان بن أزهر الذي كان كبير الأحبار في إشبيلية في مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[4]، وسعديا بن ميمون بن دنان، كبير أحبار اليهود في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وكان يسمى "الحاخام الأكبر لغرناطة"، وكان ابن دنان شاعراً ومؤرخاً وعالماً تلمودياً[5].

ج- القاضي

وبعد منصب الحبر الأعظم، يأتي منصب القاضي، أو الديَّان كما يسمّيه اليهود، وكان الناسي هو الذي يعيِّن القضاة اليهود في المدن الأندلسية. ولكنَّ هذا النظام تغيَّر فيما بعد، حيث تُظهر فتاوى أحبار اليهود منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أنَّ القضاة صاروا ينتخبون انتخاباً[6]. ففي كتاب القوانين ليهودا البرشلوني المؤلف في مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، هناك قانون يتعلَّق بتعيين القضاة، يتضمَّن توصية بوجوب طاعة القاضي، لأنَّ الطائفة برمتها قد شاركت في انتخابه[7]. ولأنهم صاروا يُنتخبون فإنَّ القاضي اليهودي في الأندلس كان يشار إليه على مدى أجيال عِدَّة باسم "المختار"[8]. وكان القاضي اليهودي يتقاضى راتباً من قبل الطائفة.

---

[1] عن ضعف الخليفة هشام وعجزه وسيطرة المنصور عليه ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص38-50.

[2] ينظر: ابن بلقين، التبيان، ص130-131؛
ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.59.

[3] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.622.

[4] HAIM BEINART, SEVILLE, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1201; BROYDE, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.208.

[5] ROYMOND P. SCHEINDLIN, THE JEWS IN MUSLIM SPAIN , THE LEGACY OF MUSLIM SPAIN, SALMA KHADRA JAYYUSI (EDITOR) , P.190.

[6] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.622; ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.82.
نقلاً عن: RESPONSA ALFASI, NO.80, 106; RESPONSA IBN MIGASH, NO.122

[7] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.82, 256.

[8] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.82.

لقد منحت السلطات الإسلامية القضاة اليهود الكثير من الصلاحيات المتعلِّقة بإدارة شؤون طائفتهم الخاصة، فقد سمح لهم بالنظر في كافة القضايا المدنية والجنائية، وحتى في الجرائم الكبرى التي كان الحكم فيها يصل إلى الموت. وكان لليهود سجنهم الخاص الذي يودعُ فيه المتهمون الذين ينتظرون النظر في قضاياهم، أو أولئك الذين يرفضون الخضوع لسلطة المحكمة، أي أنَّ السجون الخاصة باليهود كانت تستخدم كوسيلة للإجبار على الطاعة[1]، وقد استفاد القضاة اليهود، وقادتهم من السماح لهم بالنظر في الجرائم الكبرى المتعلِّقة بأبناء طائفتهم في إصدار أحكام شديدة ضدَّ أصحاب المذاهب الدينية الشاذة عنهم. وفي رسالةٍ كتبها إلى رئيس المدرسة التلمودية الفلسطينية يروي الحبر يوسف بن أبي ثور (ت: 403هـ=1012م) بأنَّ جدَّ جَدِّه قد نفَّذ في المحاكم الشرعية اليهودية في الأندلس أربع أنواع من العقوبات الكبرى، وهو بذلك يشير إلى وجود المحاكم اليهودية في الأندلس في مطلع القرن التاسع الميلادي. ويتحدَّث إسماعيل بن نغدلة عن عقوبات مشددَّة نفذت في الأزمان الخالية. فيقول: إنه في العصور القديمة (في أيام أسلافنا) كان الكفار الميَّالين إلى القرائية يخضعون للجلد، وأن أولئك الذين كانوا يستحقون مثل هذه العقوبة ماتوا أثناء جلدهم[2]. ومثلما كانت عقوبة الموت تنفَّذ ضد المتهمين بالكفر، فقد نفِّذت أيضاً ضد اليهود المتهمين بالتجسس على طائفتهم. ويذكر مصدر يهودي أنه في النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أصدرت محكمة أليسانة عقوبة الموت بحق أحد المخبرين[3]. ووفقاً لشهادة موسى بن ميمون فإنَّ إصدار حكم الموت على المتهمين بالكفر، كان ظاهرة شائعة بين الطوائف اليهودية في الأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين[4].

ويعدُّ إصدار حكم الموت خروجاً على قوانين قدماء الأحبار الذين قرَّروا إلغاء هذه العقوبة عقب تدمير الهيكل[5]. ومن الواضح أن ممارسة هذا الحكم في الأندلس، هو أيضاً أثر إسلامي، إذ تقضي شريعة الإسلام بحكم الموت للعديد من الجرائم، مثل الردَّة عن الإسلام، والقتل العمد.

وكانت الخلافات التي تقع بين مسلم ويهودي في الأندلس تحال إلى المحاكم الإسلامية[6]. أما قضايا اليهود فيما بينهم، فيترك الأمرُ فيها للمتخاصمين، فإمَّا أن يذهبوا إلى المحاكم اليهودية، أو يتوجهوا إلى المحاكم الإسلامية. وقد أورد الونشريسي

مسألة بعنوان: "اختلاف يهودي ويهودية بقرطبة على التقاضي عند المسلمين أو اليهود[7]".

(1 ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.81.

(2 ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.84.
نقلاً عن: JUDAH AL-BARCELONI, SEFER HA.ITTIM, P.267

(3 IBID, VOL.3, P.85;
JUDAH B.ASHER - ZIKHRON YHU`DA (BERLIN, 1846), FOLIO 55B.

(4 IBID, VOL.3, P.85.
MAIMONIDES'S, LETTER TO PHINEAS, THE JUDGE OF ALEXANDRIA, KO`BHES
نقلاً عن: (LEIPZIG, 1859), PART 1, FOLIO 26B, COL.1

(5 IBID, VOL.3, P.85

6) ينظر: النباهي، المرقبة العليا، ص56-57.

7) الونشريسي، المعيار المعرب، جـ10، ص128-130.

ومن قضاة اليهود في الأندلس، القاضي ناتان الذي كان قاضياً لليهودِ في قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر[1]. وقد أوضحنا كيف تنازل عن منصبه لموسى بن حنوخ الذي صار كبير أحبار اليهود في الأندلس. والقاضي يوسف بن يعقوب بن سهل، تلميذ الحبر إسحاق بن غياث الذي كان قاضياً لليهودِ في قرطبة من سنة (507هـ=1113م) إلى سنة (517هـ=1123م) أي في عصر المرابطين[2]. كما تولى هذا المنصب في قرطبة أيضاً الشاعر المرموق والعالم التلمودي الشهير أبو عمر يوسف بن صديق، وذلك من سنة (533هـ=1138م) إلى سنة (543هـ=1148م)، أي في أواخر عصر المرابطين، وبداية عصر الموحدين، وقد اعتنق أبو عمر الإسلام في أواخر أيامه[3]، وكان ديفيد بن حجر قاضياً ليهود غرناطة أثناء تولّي إسماعيل بن يوسف لمنصب كبير وزرائها[4].

د- الحَزَّان

ومن المناصب الإدارية داخل الطائفة اليهودية، منصب الحزان، ويصف القلقشندي مهمة الحزان بقوله: "وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر، ويعظهم"[5]. وكان لكلِّ كنيس يهودي (حزان) خاص، ومن مهماته أيضاً الإنشاد وإمامة المصلين في المناسبات الدينية. واشترط أحبار اليهود أن يكون الحزان متعلِّماً، صاحب سمعةٍ جيّدة، وصوتٍ جميل، ومجيداً للأناشيد العربية. وهناك سؤالٌ وُجِّه إلى أحد الأحبار الأندلسيين المشهورين في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حول حزانٍ يتردد على بيوتِ الدعارة، وله علاقة شاذة بأحد الشبان، وقد قرَّر الحبر طرده، وحتى عندما تاب لم تتم إعادته إلى منصبه[6].

ومن التنظيمات الإدارية المهمة للطوائف اليهودية في الأندلس، وجود مجلس في كلِّ مدينة توجد فيها طائفة يهودية، يشرف على إدارة شؤون الطائفة في المدينة، ويتكوَّن هذا المجلس من سبعة أشخاص، وكان اليهود يسمونهم "الشيوخ"، وهم يصلون إلى هذا المجلس بالانتخاب، ومدة بقاء هذا المجلس سنة واحدة، تحسب بالتقويم اليهودي، وقد أخذ يهود الأندلس هذا التنظيم الإداري عن الرومان الذين اعتمدوا في إدارة مدنهم على مجلسٍ منتخب من أبناء تلك المدن، وقد مارس اليهود هذا التنظيم منذ عهد الحكم الروماني لأسبانيا، وتمسكوا به في عهد القوط، ولم يتركوه إلاَّ بعد أن اشتدَّ عليهم اضطهاد القوط الكاثوليك، ثم عادوا إليه طوال مدة الحكم الإسلامي للأندلس[7]. ومن بين مهمات مجلس الطائفة أو الشيوخ،

---

1) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.618-619; HAIM BEINART CORDOBA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.5, P.963; عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص24.

2) HAIM BEINART, CORDOBA , ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.5, P.964.

3) HAIM BEINART, CORDOBA , ENCYCLOPEDIA JUDAICA , VOL.5, P.215; عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص67.

4) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.142.

5) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص474.

6) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.141. نقلاً عن: RESPONSA IBN ADRET, PART 2, NO.52

7) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.106-107.

أن يُشرِّع مجموعة من القوانين، ويطالب اليهود باحترامها والالتزام بها، وكان أحبار اليهود يوصون بطاعة هذه القوانين باعتبارها قائمة على الشريعة اليهودية، وقد سُمِّيت مجموعة القوانين التي يصدرها المجلس (TAKKANOT)، وهي كلمة عبرية، كما سميت أيضاً (الضوابط)، وهي الاسم العربي للكلمة العبرية السابقة[1].

ولاتصبح الضوابط سارية وملزمة إلاَّ بعد أن تعرض على يهود المدينة، وتحصل على غالبية الأصوات، وفي بعض الأحيان كانت هذه الضوابط تشرَّع لمدَّة محدَّدة، وأحياناً كان يتّم القبول بها كتشريع قانوني ثابت، قد يستمر لمدة طويلة. وقد فرض قادة الطائفة عقوبات على كلِّ من يخرق هذه الضوابط، تتراوح بين دفع الغرامات المالية والحرمان الكنسي[2]. وكانت لغة هذه الضوابط هي العربية بالرغم من وجود بعض الكلمات العبرية فيها، وذلك حتى تكون مفهومة للمثقفين، وغير المثقفين الذين لا يفهمون العبرية، ولكي يسهل على الدولة الاطلاع عليها ومراقبتها، والتأكد من عدم احتوائها على بنود ضدها. وكان من المعتاد الإعلان عنها في المعبد، بحضور جميع يهود المدينة، بعد توقيع قادة الطائفة عليها[3].

ويعيِّن مجلس الطائفة موظفين يشرفون على مراقبة الالتزام بالضوابط[4]. وتشبه مهمة هؤلاء الموظفين مهمة المحتسب، فهم يمنعون جميع الممارسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي ينحرف فيها اليهود عن شريعتهم وضوابطهم المتفق عليها.

ثانياً: التنظيم المالي لليهود في الأندلس

كان ليهود الأندلس تنظيماتهم المالية الخاصة، وإنّ إحدى المهمات الصعبة التي تولاها مجلس الطائفة في المدينة الأندلسية هي الإشراف على جمع الجزية المقرَّرة على يهود المدينة، وتسليمها للدولة، إمَّا مباشرة أو عن طريق المكلَّفين بجمعها من قبل الدولة، إضافة إلى جمع الضرائب والتبرعات التي يَفرضها المجلس على يهود المدينة، لتنفق على قضايا عامَّة تتعلَّق بمصلحة يهود المدينة[5].

ومن الضرائب التي تفرضها إدارة الطائفة على يهود المدينة الأندلسية ضريبة تسمى (ماؤنا) MAU`NA، وهي تجبى بشكلٍ رئيس من ذبح الماشية، وبيع الخمور، وأحياناً من كتابة محاضر المعاملات. وكانت هذه الضريبة هي المصدر

---

(1) IBID, VOL.3, P.109.
نقلاً عن: RESPONSA ASHER, CHAP.2, NOS, 27-28; RESPONSA ALFASI, NO.13
(2) NEUMANN, THE JEWS IN SPAIN, VOL.1, P.53-54; ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.109-110.
(3) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.110.
(4) IBID, VOL.3, P110; NEUMANN, THE JEWS IN SPAIN, VOL.1, P.46.
(5) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.110-111.

الأكثر أهمية لدخل الطوائف اليهودية الأندلسية على مدى الأجيال. ولذلك خصِّصت لدفع رواتب الأحبار والمعلمين المشتغلين بالتعليم تحت سلطة الطائفة وعلى حسابها، وكان "الحزان" أحد الذين يتقاضون رواتبهم من دخل هذه الضريبة[1].

وتمَّ تخصيص ضريبة خاصة لرواتب أولئك القضاة الذين كانوا يعيشون من القضاء، ولكتاب المحكمة، ولمبعوثيها. وكان ثمَّة كاتب يهودي أندلسي عاش في ختام القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يقول: إنه في أغلب الطوائف اليهودية كان هناك "صندوق نقد للمحكمة" تجمع فيه الضرائب عند بداية أو نهاية العام[2]. وكان مقدار تلك الضرائب ونوعها يختلف من عصر إلى عصر، ومن مدينة إلى مدينة[3].

وكان لليهودِ في كل مدينة أندلسية "صندوق الصدقات"، وفقاً للضوابط التي أنشأها قدماء الأحبار، وكانت أموال هذا الصندوق تدفع إلى الفقراء، وكذلك إلى الأيتام الذين ليس لديهم دخلٌ أو أقرباء[4]. وفي حال وقوع بعض أبناء الطائفة اليهودية في الأسر زمن الحروب، فإنَّ مجلس الطائفة يفرض ضريبة خاصة على يهود المدينة من أجل دفعها لافتداء الأسرى، وكثيراً ما كان أعضاء الطائفة في مثل هذه الطوارئ يستنجدون بطوائف اليهود في المدن الأخرى للحصول على دعمهم[5].

وإضافة إلى الضرائب المختلفة، كان للطائفة مدخولات ثابتة من أموالِ الوقف والهبات الدينية الطائفية، (HEKDESHOT) وكانت كثيرة في كلِّ العصور. وقد اعترفت الحكومة الإسلامية بتلك الأموال المخصَّصة للمؤسسات الدينية اليهودية، وعملت على حمايتها[6].

وقد أشارت المصادر الإسلامية إلى قيام بعض اليهود بوقف عقاراتٍ على معابدهم فقد أورد ابن سهل في الأحكام الكبرى مسألة بعنوان: "شورى في بيتٍ متهدِّم بين دار حسان ودار شنوغة اليهود[7]" ومما قاله فيها: "قام عندي حسان بن عبد الله، فذكر أنَّ له داراً بداخل مدينة قرطبة، بحومة مسجد صواب، تلاصق داراً أخرى موقوفة على شنوغة اليهود...[8]".

(1 IBID, VOL.3, P.111.

(2 ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.111.
نقلاً عن: R.JUDAH AL-BARCELONI`, CITED IN TUR HASHEN MISHPAT, NO.9

(3 IBID, VOL.3, P.111.

(4 IBID, VOL.3, P.111.
نقلاً عن: RESPONSA ALFASI , NO.160

(5 IBID, VOL.3, P.112.

(6 IBID, VOL.3, P.112.

7) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص60.

8) م. ن، ص61.

والظاهر أنَّ أموال الوقف اليهودي كانت تتعرَّض لتلاعب واعتداء الأحبار، وأنَّ القائمين على هذه الأوقاف لم يحوزوا على ثقة بعض اليهود، ولذلك وجدنا يهوداً يوقفون أموالهم على مساجد المسلمين أو فقرائهم. حيث أورد الونشريسي سؤالاً "عن يهودي حبس داراً على مسجد قرطبة"[1]. وقال القاضي ابن سهل: "سئلتُ عن يهودي حبس على ابنته فلانة البكر في حجره وولاية نظره جميع القلعة التي بموضع كذا وحدها كذا، ونصف القلعة التي بموضع كذا... وعلى عقبها وعقب عقبها، فإن انقرضوا رجع حبساً على مساكين المسلمين بلورقة"[2].

وكانت طريقة اليهود في جمع الضرائب المفروضة على الطائفة، أن يعيِّن مجلس الطائفة اثنين أو ثلاثة من أعضاء المجلس "الشيوخ"، ويتولّوا جميعاً جمع الضريبة المقررة، وهم مطالبون أمام بقية أعضاء المجلس بتقديم حسابات دقيقة في ذلك، وعندهم مبدأ مهم ينصُّ على عدم السماح لشخصٍ واحدٍ بجمع أيِّ نوعٍ من أنواع الضرائب بمفرده. وكانت عادة اليهود المحافظين على دفع الضرائب المقررة أن يتوجهوا إلى مكانٍ خاص داخل المعبد حيث يوجد الموظفون المعينون لاستلام الضرائب، فيسلِّموهم الضريبة، ويأخذوا منهم وصلاً بهذا الخصوص[3]. ويبدو أنهم تأثروا في طريقة تنظيمهم لجمع ضرائبهم بطريقة المسلمين في جمع الجزية منهم، حيث كان الشخص الذي يدفع الجزية يأخذ رقعة "براءة"، تدل على دفعه لها[4].

وكان لدى مجلس الطائفة الصلاحيات لسجن الرافضين لدفع الضرائب في مسجدٍ خاصٍّ بالطائفة[5].

المبحث الثاني

النشاط الاقتصادي ليهود الأندلس

شارك يهود الأندلس في معظم فروع النشاط الاقتصادي التي عرفته تلك البلاد. فقد اشتغلوا في التجارة الداخلية والخارجية، وفي الزراعة والصناعة، وفي العديد من المهن الأخرى، وهم بذلك يختلفون عن كثير من يهود العالم الذين تركز نشاطهم الاقتصادي على التجارة، وأهملوا الفروع الاقتصادية الأخرى، وخصوصاً الزراعة.

وقد أتاح لهم المسلمون منذ أن فتحوا الأندلس أن يشاركوا في النشاطات الاقتصادية كافة، ومنعوهم فقط من النشاطات المحرَّمة التي تقوم على الربا، ومن بيع الخمر والخنزير للمسلمين.

وفيما يأتي بيان وتفصيل للنشاطات الاقتصادية المختلفة التي عمل فيها اليهود.

---

1) الونشريسي، المعيار المعرب، جـ7، ص65.
2) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص68.
3) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.106; NEUMANN, THE JEWS IN SPAIN, VOL.1, P.44-89.
4) الكبيسي، حمدان عبد المجيد، الخراج، أحكامه ومقاديره، بغداد، نشر جامعة بغداد، 1411هـ-1991م)، ص182-183.
5) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.114.
نقلاً عن: RESPONSA IBN ADRET, PART 4, NO.86, PART 3, NO.400

1- التجارة

أولى يهود الأندلس كغيرهم من يهود العالم، التجارة اهتماماً كبيراً، وعدُّوها الطريق الأفضل لتحقيق الربح الكبير. وقد حَضَّهم على ذلك أحبارهم، إذ وضع العالم التلمودي راب (RAB) شعاراً لأبناء مِلَّته يقول: "تاجر بمائة فلورين(*)، تحصل على لحمٍ وخمر، أما إذا استغْلَلْتَ هذا القدر نفسه في الزراعة، فأكبر ما تحصلُ عليه هو الخبزُ والملح"[(1)]. وفي رسالة المجمع اليهودي العالمي التي أشرنا إليها سابقاً، إلى يهود أسبانيا النصرانية، توصية لليهود بالاهتمام بالتجارة، فقد جاء فيها: "بمقتضى قولكم إنهم يأمرونكم بالتجرُّد من أملاككم، فاجعلوا أولادكم تجاراً ليتمكنوا رويداً رويداً من تجريدِ المسيحيين من أملاكهم"[(2)].

وقد عمل يهود الأندلس في التجارة الداخلية، فشاركوا في نقل وتبادل السِّلَع بين مدن الأندلس، وكانت لهم محال تجارية في أسواق المدن التي يعيشون فيها. يقول ابن حزم الأندلسي: "ولقد كنتُ يوماً بالمرَّية قاعداً في دكان(*) إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي"[(3)].

إضافة إلى المتاجر التي يملكونها داخل الأحياء اليهودية. وكانت المحال التجارية في الأندلس تتركز في شوارع خاصَّة، وفقاً لنوع السِّلع التي تبيعها، وقد خصَّصَ الأندلسيون أسواق خاصة للسِّلع القيِّمة كالذهب والحرير، وكانت هذه الأسواق مغطاة بسقف، وتقع غالباً بالقرب من مسجد المدينة الرئيس، وأطلق المسلمون على ذلك النوع من الأسواق اسم"القيسارية"[(4)].

وقد أشار العذري إلى قيسارية المرية في قوله: "ودار صناعتها القديمة المذكورة قبل هذا قد قسمت على قسمين، فالقسم الواحد فيه المراكب الحربية والآلة والعدَّة، والقسم الثاني فيه القيسارية. قد رتب كل صناعةٍ منها حسب ما يشكل لها، قد أمن فيها التجار بأموالهم، وقصد إليها الناس من أقطارهم"[(5)]، وكانت ساحة بلنسية في الحي اليهودي بسرقسطة تدعى فيما مضى بالقيسارية. وفي مدينة مالقة كانت القيسارية أيضاً ضمن الحي اليهودي. وتدلُّ أسماء الشوارع والحارات في الأحياء اليهودية في عددٍ من المدن الأندلسية على أنَّ يهود الأندلس قد تعاملوا بكلِّ أصنافِ التجارة، لكنَّهم تخصَّصوا في تجارة الأنسجة والملابس الحريرية[(6)].

وقد شهدت الأندلس طوال مدة الحكم الإسلامي حركة تجارية نشطة، والإشارات الدالة على ذلك كثيرة نذكرُ منها قول الشنتريني: "كتب أبو عليّ بن الربيب القروي رقعة إلى الوزير الكاتب أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم، يقول له فيها:

(*) الفلورين (FLORIN): "عملة فلورنسية أو هولندية أو إنكليزية".
البعلبكي، منير، المورد، (بيروت، دار العلم للملايين، 1983م)، ص356.

1) ديورنت، ول وايريل، قصة الحضارة، جـ3، م4، ترجمة: محمد بدران، (بيروت، تونس، 1408هـ، 1988م)، ص61.

(2) إميل الخوري، مؤامرة اليهود على المسيحية، ص41-42.

(*) الدكان، واحد الدكاكين، وهي الحوانيت، فارسي معرب. وهذا المعنى يؤكد أن دكان اليهودي ابن يونس كان حانوتاً تجارياً.
ينظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكروم، لسان العرب، م3، مادة: دكان، (بيروت، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، 1375هـ1956م)، ص157.

(3) ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم الأندلسي، جـ1، ص114.

(4) مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، استخرجه من مخطوطات عدة: الفريد البستاني، (المغرب، مطبعة الفنون المصورة، د.ت)، ص5.

(5) ترصيع الأخبار، ص86.

(6) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.276. نقلاً عن: TOMAS XIMENEZ DE EMBUN, DESCRIPCION HISTORICA; DE LA ANTIGUA ZARAGOZA (SARAGOSSA, 1901), P.61.

"إني فكرتُ في بلدكم أهل الأندلس، إذ كان قرارة كلّ فضل، ومقصد كل طرفة، ومورد كل تحفة، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تُجلَب، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق"[1]. وقول البكري: "ويوجد بجبالِ قلعة أيوب المرّ الطيب، وأطيب كهرباء الأرض بشذونة، درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة، وأطيب القِرمز قِرْمِزُ الأندلس، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولبلة وشذونة وبلنسية، ومن الأندلس يُحمَلُ إلى الآفاق"[2]. وقول الحميري: "وكانت المرية تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام، ولم يكن بالأندلس أكثر مالاً من أهلها"[3]. وقوله في وصف زيت جبل الشرف المطلّ على إشبيلية: "ومن هناك يُتجهَّزُ به إلى الآفاقِ بَرّاً وبحراً"[4]. وقوله في وصف قطن إشبيلية: "والقطن يجودُ بأرضها، ويعم بلاد الأندلس، ويُتجهَّزُ به التجار إلى أفريقيا وسجلماسة وماوالاها"[5]. وقوله في وصف تجار قرطبة: "وتجارها مياسير، وأحوالهم واسعة"[6].

ومثلما اهتمَ كثيرٌ من مسلمي الأندلس بالتجارة الخارجية، وبرعوا فيها[7]، فعل أيضاً يهود الأندلس بعد أن حُرِموا من ممارستها في عهد القوط الكاثوليك[8].

وتتوفَّر العديد من الروايات التاريخية والوثائق التي تتحدَّثُ عن تجارِ يهود، وعن مشاركاتهم في التجارة الخارجية طوال مدة الحكم الإسلامي للأندلس. إذ يروي ابن حيَّان أن تاجراً يهودياً دفع للنورمان فدية ليفك أسر سعدون بن فتح السرنباقي، أحد رجالات حركة المولدين في منطقة ماردة[9]، بعد أن أسره النورمان في إحدى هجماتهم على سواحل الأندلس الغربية في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (238-273هـ=852-886م)[10]، "وأسرته المجوس الخارجون بساحل الأندلس الغربي أيام الأمير محمد، ففداه منهم بعض تجار اليهود، يبتغي الربح معه، ففاوض اليهودي إلى أنْ هرب عنه، وأخفر ذِمتَّه، وأخسره ماله"[11].

ويروي الضبيَّ أنَّه كان مع جيش الأسبان في معركة الأرك (591هـ=1195م) "جماعات من تجار اليهود، قد وصلوا لاشتراءِ أسرى المسلمين وأسلابهم، وأعدُّوا لذلك أموالاً فهزمهم الله تعالى، واستوعب القتل أكثرهم، وحاز الموحدون جميع ما احتوت عليه محلتهم الذميمة"[12].

---

(1) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص133.
(2) البكري، المسالك والممالك،"الجزء الخاص بالأندلس وأوربا"، ص127.
(3) الحميري، الروض، ص394.
(4) م. ن، ص59.
(5) م. ن، ص59.
(6) الحميري، الروض،"صفة جزيرة الأندلس"، ص153.
(7) المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، مطبعة بريل، ط2، 1909م)، ص236، 239.
(8) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.265; HAIM BEINART, SEVILLE; ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1201; HAIM BEINART,MURCIA; ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.12, P.530; HAIM BEINART, LUCENA; ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.11, P.550.
(9) عن كونه أحد رجالات حركة المولدين في ماردة. ينظر: ابن حيان، المقتبس، نشر: ملشور م. أنطونيه، ص15.
(10) كان للنورمان ثلاث هجمات على سواحل الأندلس، الأول وقع سنة (229هـ=844م). ينظر: ابن القوطية، تاريخ إفتتاح الأندلس، ص86، والثاني سنة (245هـ=859م). ينظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق: محمود علي مكي، ص307-309، والثالث سنة (247هـ=861م). ينظر: العذري، ترصيع الأخبار، ص119. والهجومان الثاني والثالث وقعا في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن.
(11) ابن حيان، المقتبس، ملشور م. أنطونيه، ص23.
(12) بغية الملتمس، ص45-46.

ويروي الشنتريني نقلاً عن ابن حيان كيف توجَّه تاجرٌ يهودي أندلسي في أعقاب سقوط مدينة بربشتر (456هـ=1064م) إلى هذه المدينة المحتلَّة لافتداء أسيراتٍ مسلماتٍ وردُّهن إلى ذويهنَّ في الأندلس للتربح[1]. وفي ردود لأحبار قرطبة اليهود في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي يوجد ذكر للمشكلات الناجمة عن مشاركة اليهود الأندلسيين في التجارةِ الخارجية. وقد طُلِبَ من الأحبار معالجة تلك المشكلات المادية الناشئة عن الغياب الطويل للتجار عن منازلهم الذي يصِلُ في بعض الأحيان لسنوات عِدَّة. ومن أهم تلك المشكلات أنَّ زوجات التجار الغائبين كُنَّ يُطالبن بتطليقهنَّ من أزواجهنَّ الغائبين منذ مُدَّة طويلة، لاحتمال أنَّهم قد هلكوا في أسفارهم التجارية الطويلة ذات المخاطر الكبيرة[2].

وبسبب روابطهم التجارية الوثيقة مع مراكش وبقية دول الشمال الأفريقي، غالباً ما كان يهود الأندلس من التجار يذهبون هناك لإقامة علاقاتٍ لهم مع التجار في المدن ذات الموانئ. وثمة سؤال وجِّه من القيروان إلى حبرٍ يهودي في العراق في منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، يتحدَّثُ عن تجار من الأندلس كانوا يزورون شمال أفريقيا، وسؤال آخر وجِّه في نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي إلى أحد الأحبار، يسألُ عن اثنين من الشركاء أحدهما في القيروان والآخر في الأندلس. وغالباً ما كان التجار اليهود يزورون الدول النصرانية في أسبانيا النصرانية. ويحتوي سؤال موجّه إلى أحد الأحبار اليهود الأندلسيين في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، على رواية عن تاجرٍ يهودي ذهب إلى إحدى الدول النصرانية، وظلَّ هناك لمدة ست سنوات[3].

وطرأت ظروفٌ جديدة أثناء حكم بني أمَّة للأندلس، زادت من أهمية ومكانة التجار اليهود في الأندلس. فقد ازداد عداء نصارى غرب أوربا للمسلمين في المشرق والمغرب نتيجة لمحاولاتهم المتواصلة لفتح جزر وأراضٍ تابعةٍ لهم، فقد جرت محاولات لفتح جزيرة صقلية ابتدأت سنة (32هـ=652م)، واستمرَّت إلى أن فتحها المسلمون سنة (212هـ=827م)[4]، كما قام المسلمون بحملاتٍ عدِّة على جزيرة سردينيا، وعلى جنوبي فرنسا وجنوبي إيطاليا. كما قامت جماعة من المسلمين الأندلسيين بالسيطرة على جزيرة كريت سنة (213هـ=828م)، واتخذوها منطلقاً لمهاجمة الأراضي والسفن النصرانية. وقد أدَّى هذا العداء إلى عدم تجرُّؤ التجار المسلمين من الوصول إلى غرب أوربا عبر ميناء مرسيليا حاملين معهم التوابل والزيوت وأوراق البردي وغيرها من السلع التي يحتاجها الأوربيون، مثلما كانوا يفعلون من قبل. وصار التجار النصارى غير قادرين على الوصول إلى بلدان المسلمين لجلب هذه السلع بأنفسهم، لأنَّ الطرق البحرية بين أوربا الغربية والدول الإسلامية أصبحت تحت سيطرة الأساطيل الإسلامية. وبالرغم من أنَّ الدول الإسلامية لم تمنع التجار النصارى من الوصول إلى أراضيها، إلاَّ أنَّ كثيراً منهم كانوا يخشون من العمل في هذا المجال[5].

---

[1] الذخيرة، ق3، م1، ص188.

[2] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.277-278; نقلاً عن: SHAARE SEDEK, PARTS, SECTION.2, P.11, 30.

[3] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.278. نقلاً عن: S.ASSAF, MI- SIFRUT HA-GONIM, (JERUSALEM,1933), p.103.

[4] عن فتح المسلمين جزيرة صقلية. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص366.

[5] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.279-280.، عن النشاط العسكري البحري لمسلمي الأندلس ضد النصارى وأثره في عرقلة حركة التجار النصارى ينظر: أرسلان، شكيب، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، (بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979م)، ص181-206.

وكان للتجار اليهود الأندلسيين دور مهم في استمرار الحركة التجارية في البحر المتوسط بين الإمبراطورية الفرنجية في أوربا ودول المشرق، حيث قام هؤلاء التجار بأخذ السلع التي تصل إلى الأندلس من بلاد المشرق، ويحتاجها الأوربيون، وبيعها في بلاد الغال (فرنسا) التي كانت المركز الرئيس الذي تنتقل منه هذه السلع إلى دول أوربا. وعن ذلك يقول الحميري في معرض وصفه لمدينة مغانجة الواقعة في بلاد الفرنجة[1]: "ويختلف إلى مدينة مغانجة أهل بردون واليهود بجهاز الأندلس، وذلك غزل الحرير والخز والبياض والشقيق والزئبق والأحمرة واللاذن والزعفران، وغير ذلك من السلع والبضائع"[2].

وقد عمل أيضاً تجار نصارى من الأندلس في هذا المجال، حيث وصل اثنين من إخوة إيلوغيوس (EULOGIUS) قائد المتعصبين النصارى في قرطبة إلى مدينةماينز (MAYENCE) في ألمانيا، وذلك في رحلة تجارية من الأندلس إلى تلك البلاد[3].

لكنَّ التجار اليهود في الأندلس، وفي الإمبراطورية الفرنجية كان لهم حظاً وافراً من هذه التجارة وتمكنوا من تحقيق الأرباح الطائلة من ورائها. حيث أدرك ملوك الفرنجة أهمية الدور الذي يقوم به التجار، اليهود سواء المقيمين في بلاد الغال أو القادمين من الأندلس، وقدَّموا لهم الحماية، وأعفوهم من دفع الضرائب[4]. وذكر كولان أنّ اليهود "كانوا يتحكمون في أسباب التجارة بين الأندلس والقارة الأوربية من جهة، وبين المشرق الإسلامي من جهة أخرى"[5].

وأجد في قول كولان هذا مبالغة كبيرة، إذ لم يسيطر اليهود على تجارة الأندلس مع الشرق، بل كان التجار المسلمون هم المسيطرون على هذه التجارة[6]. واليهود لم يتفوقوا إلا في التجارة مع أوربا، وكان ذلك بسبب حالة العداء مع الدول النصرانية التي لم تمكن التجار المسلمين من الوصول إليها بسهولة، وكذلك لم يستطع التجار النصارى من الوصول إلى بلاد المسلمين بسهولة، وبقي التجار اليهود هم الوحيدون الذين يستطيعون السفر إلى بلاد النصارى وبلاد المسلمين بحرية وبلا خوف.

ولم يقتصر نشاط التجار اليهود الأندلسيين على نقل سلع بلاد المشرق من الأندلس إلى بلاد الفرنجة، بل نقلوا أيضاً المنتجات المصنَّعة في الأندلس، المشهورة بجودتها والتي كان نبلاء الفرنجة يحرصون على إقتنائها. ومن هذه السلع الملابس والمنسوجات الحريرية والقطنية والمنتجات الجلدية، والزئبق والزعفران، والحلي[7]. وكانت نساء الحكام والأمراء النصارى في الشمال ينتظرن وصول التجار اليهود بفارغ الصبر[8].

وكان ليهود الأندلس تجارة واسعة مع شمال أفريقيا وبقية البلدان الإسلامية. وتقدم رسائل التجار اليهود التي عُثر على عددٍ منها في جنيزة القاهرة معلومات مهمة عن تجارة يهود الأندلس مع تلك الدول. ففي رسالةٍ كتبت في حدود سنة

---

[1] الحميري، الروض، ص556.
[2] م. ن، ص556.
[3] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.279-280.
[4] IBID, VOL.1, P.280-281.
[5] ج.س.كولان، الأندلس، (ط1، 1980م)، ص96-97.
[6] عن نشاط التجار المسلمين مع الشرق الإسلامي. ينظر البكري، المسالك والممالك، الجزء الخاص بالأندلس، ص127؛ الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص133؛ الحميري، الروض، ص394؛ جوايتاين، دراسات، ص238.
[7] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.291.
[8] ينظر: المقري، نفح الطيب، جـ1، ص7، 93-94.

(535هـ=1140م) من تاجر يهودي أندلسي في فاس إلى أبيه في المرَّية، يتبيَّن أنَّ التجار اليهود الأندلسيين الذين كانوا يسافرون للتجارة مع المغرب كانوا يدفعون الجمارك عن بضاعتهم، وأنَّ مقدار ما يدفعونه باعتبارهم مواطنين في دار الإسلام أقل مما يدفعه اليهود الأجانب، ولذلك كان اليهود الأجانب يُحمِّلون بضاعتهم في بعض الأحيان لليهود المواطنين كي يتخلَّصوا من دفع مبالغ أكبر. وقد دفع ذلك موظفو الجمارك في المغرب أن يطالبوا اليهود الأندلسيين بالقسم على أنَّ كلَّ ما يحملونه من بضاعةٍ يعود لهم، وليس لأحدٍ من الأجانب.

كما يتبيَّن من هذه الرسالة أنَّ التجار اليهود الأندلسيين كانوا يجلبون معهم إلى المغرب الأقمشة الحريرية والنحاس والسقمونيا وصبغة النيلة وصبغة اللُّك، ويستوردون منها الكحل[1].

وتبيِّن رسالة أخرى بعث بها إسحاق بن باروخ المقيم بمدينة المرية إلى أبي سعيد خلفون بن نثنيل بمدينة تلمسان في 10-10-1138م، أنّ الحرير بمختلف أنواعه والنحاس المصقول والمسبوك كان من أكثر السلع التي نقلها التجار اليهود إلى الشمال الأفريقي، وأنَّ التوابل والشمع الفاسي الجيِّد والعشب الطبي من السلع التي كان يهود الأندلس يجلبونها من تلك البلاد[2].

وفي رسائل الجنيزة ذكرٌ لبضائع قادمة من الأندلس إلى تونس، شارك اليهود في إعادة تصديرها إلى دول أخرى. وفي رسالة مؤرخة في 1083/1/10م، يتبيَّن أنّ تجاراً يهوداً نقلوا الصنوبر من الأندلس إلى تونس[3]. وتبيِّن رسالة أخرى مؤرخة في أواخر شهر ديسمبر/1141م، ومرسلة من مدينة فاس إلى المرية أن التجار اليهود في الأندلس كانوا يجلبون الشَّب بكميات كبيرة من مراكش، وأنَّ السلع الأندلسية المصنَّعة كانت تنقل من قبلهم إلى الشمال الأفريقي، ومن السِّلع التي ذكرتها هذه الرسالة الموازين والمثاقيل[4].

وكانت بعض مراسلات التجار اليهود تحتوي على تقارير عن موقف السكان في البلد التي كتبت فيه الرسالة من اليهود، وعن الأحداث السياسية الكبيرة فيها، وعن أهم أخبار الطائفة اليهودية، وذلك لتأثيرِ ذلك على تحرّكاتهم وتجارتهم[5]. وقد جاء في الرسالة الآنفة الذكر، والتي كتبت في مدينة فاس في عهد الموحدين العبارة التالية: "وتنتشرُ كراهية اليهود في هذا البلد، إلى درجة أنه بالمقارنة معه فإن المرية تعد مكان الخلاص"[6].

كما تاجر يهود الأندلس مع مصر، وهناك رسائل متبادلة بين تجار يهود وصلوا إلى الإسكندرية وبين شركائهم في الأندلس. وتبيِّن إحدى هذه الرسائل أنَّ الصوف المصبوغ كان أحد السِّلع التي يجلبها بعض التجار اليهود من مصر إلى الأندلس[7]. وتبيِّنُ رسالة أخرى أنهم كانوا يجلبون منها أيضاً المسك، وأنَّهم كانوا ينقلون إليها العنبر[8].

(1 GOITEN, SOLOMON, DOB FREITZ, LETTERS OF MEDIEVAL, JEWISH TRADERS, P.51-55.

(2 IBID, P.259-263.

(3 جواتيان، دراسات، ص234.

(4 GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.266.

(5 IBID,P.55,264-267.

(6 IBID, P.55.

(7 GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.232-233.

(8 جوايتاين، دراسات، ص214.

وتدُّلنا بعض الرسائل المتبادلة بين التجار اليهود في الأندلس ووكلائهم في الخارج على حاجة التجار اليهود في الأندلس الذين يعملون في مجال التجارة الخارجية إلى وكلاء ثقات يعملون معهم. وقد نجمت العديد من المشكلات بين التجار اليهود في الأندلس ووكلائهم بسبب تلاعب الوكلاء في بعض الأحيان، وعدم أمانتهم، وقد أرسل يهودي أندلسي إلى يهودي آخر في الإسكندرية يطلب منه أن يكون وكيلاً له هناك، فاشترط الأخير لقبولِ هذه الوكالة أن لا يتحمل مسؤولية الخسارة الناجمة عن مخاطر الرحلات التجارية، وأن لا يُطالب بحلف اليمين[1].

وكتب تاجر يهودي أندلسي سنة (433هـ=1141م) رسالة إلى شريكه في المغرب يشكو فيها من عدم توَفّر شخص موثوق يرسل معه الأموال والبضائع إلى المغرب، حيث يقول: "قلبي يحترق لأنني جمعت الذهب، ولم أعثر على أيّ شخص يمكنني أن أرسله معه، ولذا يجب أن أرسله مع ديفيد، وهذا لايروق لي أبداً"[2].

وكثيراً ما كان التجار اليهود يضعون ثقتهم في التجار المسلمين، ويأمنونهم على بضائعهم، وقد جاء في إحدى رسائل الجنيزة: "إذا كانت هناك قافلة، وكان يسافر فيها مسلمون مؤتمنون، تكرَّم بإرسال البضائع معهم"[3].

ونجد في أوراق الجنيزة أدعية وتمنيات طيبة من تجار يهود لتجار مسلمين حملوا أماناتٍ معهم للتجار اليهود. كذلك نجد قيام بعض المشاركات في الأعمال التجارية بين المسلمين واليهود، وأنَّ اليهود كانوا يزورون بيوت شركائهم في العمل من المسلمين، ويهنئونهم في أيام الأعياد[4].

وكان تجار الأندلس اليهود يسافرون في رحلاتهم التجارية على متن سفن أندلسية وغير أندلسية. وتبيّن رسالة أرسلها زكري بن حنانيل من الإسكندرية في سنة (494هـ=1100م) إلى عروس بن جوزيف في الأندلس، أنَّ السفينة الأندلسية التي كان زكري سيسافر على متنها من الأندلس، سوف يتأخر إبحارها، لأنَّ السلطان في مصر قرَّر إفراغ هذه السفينة لتكون جاهزة لاستخدامها عند الضرورة في الحرب ضد الصليبيين الذين وصلوا للتوّ، وقد اضطر زكري من أجل ذلك لركوب سفينة متجهة إلى المهدية، وإلى إرسالِ رسالة إلى شريكه في الأندلس ليخبره بذلك[5].

وكتب تاجر يهودي من الأندلس إلى زوجته في القاهرة يقول: "إني أعتزم المجيئ على الجيتاني، وهي سفينة يمتلكها تاجر من جيتا (GAETA) في إيطاليا[6]. وكان التجار اليهود في العصور الوسطى يفضلون السفر في البحر على السفر في البر، لأنه أكثر أماناً، ويقدِّرُ جوايتاين من خلال دراسته لوثائق الجنيزة أنَّ نسبة سفر اليهود بالبّر إلى سفرهم بالبحر تساوي1: 20[7].

لقد جذب الازدهار الاقتصادي الذي تميَّزت به الأندلس اليهود من مختلف البلدان للمتاجرةِ معها. وقد ساعد انتشار اليهود في مختلف بلدان العالم، وتعاونهم، على نجاحهم في مجال التجارة الخارجية[8]. يظهر ذلك من خلال وثائق الجنيزة،

---

[1] GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.233-235.
[2] GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.265.
[3] جوايتاين، دراسات، ص218.
[4] م. ن، ص238.
[5] جوايتاين، دراسات، ص222.
[6] م. ن، ص213-214.
[7] م. ن، ص217-218.
[8] يواكيم برنز، بابوات من الحي اليهودي، ص43.

إذ تبيّنُ إحدى هذه الوثائق أنَّ تاجراً يهودياً قدم إلى الأندلس من خراسان، وأقام علاقاتٍ جيدة مع اليهود في إشبيلية، وعندما غادرها متوجهاً إلى القدس حمَّلوه رسالة إلى صديقهم الجاؤون سليمان بن جودة، رئيس أكاديمية القدس حتى عام (443هـ=1051م)، وأوصوه به خيراً، فاستقبله وساعده، وعندما قرَّر السفر إلى القاهرة حمله سليمان بن جودة خطاباً إلى صديق له في القاهرة يقول فيه: "حامل هذا الخطاب يهودي من خراسان، أوصاني به كثيراً أصدقائي في إشبيلية، وهو الآن سائر إلى القاهرة، أرجو أن توليه اهتمامك"[1].

وكان التاجر اليهودي سعدان البغدادي أحد التجار اليهود الذين استقروا مدَّة من حياتهم في الأندلس. حيث احتوت وثائق الجنيزة على رسائل كتبها بيده من الأندلس إلى وكلائه وشركائه في مصر. وكان كثير التنقل، حيث كتب رسائل أخرى من شمال أفريقيا ومصر[2].

وقد استغلَّ بعض التجار اليهود رحلاتهم التجارية في إقامة علاقاتٍ ثقافية مع أدباء ومشاهير اليهود في مختلف أنحاء العالم، وللبحثِ عن الكتب المثيرة للاهتمام. ومن أولئك التجار أبو سعيد حلفون بن ينثانيل هاليفي، الذي تدلُّ مراسلاته التي وُجدت في جنيزة القاهرة على أنه استقر في عدن والهند والأندلس وشمال أفريقيا. وتمكنَّ من إقامة علاقات حميمة مع كثير من الشخصيات اليهودية العلمية في عهده. وكانت صداقته مع الشاعر اليهودي الأندلسي يهودا هاليفي هي السبب في حفظ خمس رسائل خطيّة، وعدد من الأمور المرتبطة بهذا الكاتب الكبير، إذ حُفظت في أوراق حلفون، ثم وجدت طريقها إلى جنيزة القاهرة. وإحدى رسائل حلفون إلى الشاعر يهودا هاليفي التي حفظتها جنيزة القاهرة، كتبت في 1138/7/10م، وفي سنة (535هـ=1140م) وهو العام الذي غادر فيه يهوذا هاليفي الأندلس، كتب قصيدة يتحدَّث فيها عن صداقة حلفون المخلصة[3].

وقد وصل تجار يهود من الأندلس إلى الهند، وجلبوا منها التوابل والجواهر والأحجار الكريمة والفيروز وأنواع مختلفة من الخرز والأصداف، لكنَّ نصيب اليهود من تجارة الهند كان متواضعاً، إذا ما قورن بنصيبِ غيرهم فيها[4]. وذلك بسبب كثرة المخاطر التي يتعرض لها الذين يتاجرون مع الهند.

وقد عمل كثيرٌ من اليهود الذين تركوا الأندلس في عصر الموحِّدين في التجارة، ومن أولئك اليهود ديفيد شقيق موسى بن ميمون الذي استقرَّ مع عائلته في مصر، ثمّ خرج في رحلاتٍ تجارية عديدة إلى الهند، إلى أنْ غرق ومات في إحدى رحلاته[5].

وتبيّن بعض وثائق جنيزة القاهرة أنّ العمل في تجارة ما وراء البحار، كان طموحاً للشبان اليهود، يَسعَونَ لأخذ موافقة أهلهم عليه. وتُبيِّن إحدى هذه الوثائق أنَّ أحد الآباء قد أعطى لولده وعداً وهو ثَمِل بالسماح له بممارسة هذه التجارة الخطرة، وأنَّه اضطَّر للوفاءِ بوعده[6].

---

(1) جوايتاين، دراسات، ص214.

(2) GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.255.

(3) GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.259-260.

(4) جوايتاين، دراسات، ص252؛ الكواتي، اليهود في المغرب، ص143.

(5) GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.208.

(6) IBID, P.255.

وأهم تجارة مارسها يهود الأندلس واحتكروها هي تجارة الرقيق، إذ كانوا يجلبون إلى الأندلس أعداداً كبيرة من الفتيان والفتيات الصغار، يشترونـهم من شمال أسبانيا، وبلاد الفرنجة، ومن الدول السلافية، ودول ساحل البحر الأسود، ثمَّ يعرضونـهم للبيع في أسواق الأندلس، فيشتري أمراء وأغنياء المسلمين في الأندلس من شاءوا من هؤلاء الرقيق، ومن زادوا عن حاجتهم يحملهم التجار اليهود إلى شمال أفريقيا وإلى المشرق الإسلامي، حيث يتمَّ بيعهم هناك[1]. وسرعان ما كان هؤلاء العبيد يتعلمون العربية ويتثقفون بالثقافة الإسلامية ويعتنقون الإسلام. وقد أصبح كثيرٌ منـهم حرّاساً لأمراء الأندلس وجنوداً وقادة في الجيش الإسلامي. وامتلك العديد من الأمراء كثيراً من الجواري الذين جلبهن التجار اليهود إلى الأندلس[2]. وقد مرَّت بنا رواية ابن سعيد الأندلسي التي تتحدَّث عن الجارية التي أراد شراءها الأمير محمد بن عبد الرحمن من التاجر اليهودي الذي بالغ في ثمنها[3].

ويتحدَّث المقدسي أيضاً عن دور اليهود في تجارة الرقيق[4]. ويقول البكري: "ومدينة فراغة (براغ)... ويأتيهم من بلاد الأتراك الإسلام واليهود والترك بالمتاجر أيضاً والمثاقيل المرقطية، فيحملون من عندهم الرقيق"[5].

وتحتوي الكتب الفقهية الأندلسية على العديد من المسائل المتعلِّقة ببيع وشراء الرقيق مما يدلُّ على شيوع هذه التجارة في الأندلس[6].

وابتدع التجار اليهود الخِصاء، لارتباطه بتجارة الرقيق، حيث لم يكن يُسمح للرجل بالعمل في مجال خدمة حريم الأمراء، إلاَّ إذا كان خَصِيَّاً[7]. يقول ابن حوقل: "الخصيان فمن جلب الأندلس... ويفعل ذلك بهم التجار اليهود"[8].

وكان اليهود يجرون عملية الخصي في معظم الأحيان في مكانين رئيسين، الأول في مدينة فيردون (VERDUN) من بلاد الغال، وهي مدينة مشهورة بسوق رقيقها. والثاني في مدينة أليسانة[9]. وقد أشار المقدسي إلى هذه المدينة عندما قال: "وأمَّا الصقالبة فإنهم يحملون إلى مدينة خلف بجانة أهلها يهود فيخصونـهم"[10]. ويشير المقري إلى أنَّ عملية الخصي كانت تتم على أيدي اليهود في أماكن أخرى، حيث يقول: "وتخصيهم للفرنجةِ يهود ذمَّتهم الذين بأرضهم، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم، فيُحمل خصيانـهم من هنالك إلى سائر البلاد"[11].

---

(1) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص153؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص242؛ ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، ق1، (ليدن، مطبعة بريل، 1938م)، ص106.

(2) م. ن، ص424.

(3) ابن سعيد، الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص151، ترجمة رقم: 91؛ النباهي، المرقبة، ص56-57.

(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص232.

(5) ذكرت في المتن "الدَّقيق"، وقال المحقق: "وقد تقرأ: "الرَّقيق" ولكنَّ قراءتها: "الدقيق" أرجح يؤيد ذلك الجملة التي تليها". البكري، المسالك والممالك،"الجزء الخاص بالأندلس وأوربا"، ص162 (هامش المحقق). وأعتقد أن"الرقيق"هي الأرجح لأنه من غير المعقول أن يذهب التجار المسلمون إلى هذه البلاد البعيدة من أجل أن يأخذوا منها الدقيق المتوفر في بلدانهم، وكذلك لا يعقل أن يحمل التجار اليهود من هذه البلاد البعيدة الدقيق ذو الوزن الثقيل والربح القليل. فقد اعتادوا أن يحملوا بسبب طول أسفارهم ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه. وهو ما يتوفر في الرقيق وليس في الدقيق. كما أنه من المعروف أن هذه المدينة تقع في بلاد السلاف التي كانت مصدراً مهماً من مصادر الرقيق.

(6) مالك ابن أنس، وآخرون، المدونة، م4، جـ10، ص311-312، ابن فرحون، تبصرة الحكام، جـ2، ص74-75؛ ابن سلمون الكناني، العقد المنظم، ص216.

(7) أرسلان، الحلل السندسية، جـ1، ص46.

(8) صورة الأرض، ق1، ص106.

(9) م. ن، جـ1، ص46؛ .ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.289

(10) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص232.

(11) المقري، نفح الطيب، م1، ص145.

والجدير بالذكر أن بعضاً من يهود الأندلس هم الذين عملوا في مجال التجارة، وأنّ بقيتهم قد مارسوا أعمالاً أخرى زراعية ومهنية.

والظاهر أن الغنى الذي تحدث عنه الإدريسي عندما وصف يهود أليسانة قد جاء من خلال كثرة التجار بينهم في هذه المدينة.

وأعتقد أنَّ لقوانين الشريعة الإسلامية التي طُبِّقت في الأندلس، فوفَّرت لأهل الذِّمّة قدراً كبيراً من الحقوق، كحرية البيع والشراء والتنقل، وحمت أموالهم ودماءهم، أثرٌ كبيرٌ في إنجاحِ تجارة اليهود. وعن ذلك يقول جوايتاين: "إنَّ القدر الهائل من حرية الحركة الذي تمتَّع به اليهود، الذي عكست لنا صورته جنيزة القاهرة، كان من المستحيل أن يتحقق مالم يكن لهم وضع قانوني، ومالم يسمح بذلك مناخ السياسة العامة"[1].

ثانياً: النشاط الزراعي لليهود في الأندلس

اشتغل يهود الأندلس بالزراعة قبل الفتح الإسلامي للأندلس، وامتلكوا أراضٍ زراعية، تولّوا زراعتها بأنفسهم، كما عمل بعضهم إداريين في إقطاعات النبلاء القوط[2].

وبسبب الضغوط التي مارسها القوط الكاثوليك على اليهود، كان وضعهم في نهاية عهدهم في غاية الصعوبة، إذ جُرِّدوا من أملاكهم، وعملوا عبيداً في المزارع والحقول التابعة للقوط[3].

وعندما فتح المسلمون الأندلس أعطوا لليهود بعض ممتلكات وبيوت القوط الهاربين[4]، لكنَّ ذلك لم يُعِد إلى القطاع الزراعي إلاَّ عدداً قليلاً منهم، إذ حصل الفاتحون الأوائل على معظم الأراضي الزراعية، بعد أن قُسِّمت أربعة أخماسها بينهم، وبقي خمسٌ واحد في يدِ الدولة تنفِق منه على مصالح المسلمين وفقرائهم. ومما يدل على ذلك التقسيم، رواية ابن عذاري التي يقول فيها: "ثمَّ ولّى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- السمح بن مالك على الأندلس، وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق، ولايعدل بهم عن منهج الرفق، وأن يُخمِّسَ ما غلب عليه من أرضها وعقارها"[5].

وقوله: "وفي سنة 101هـ ورد كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على السمح بن مالك بالأندلس... ويأمره بإخراج خمس قرطبة، فخرَّج منه الخُمُس البطحاء المعروفة بالريض، فأمر الخليفة عمر أن يتخذ بها مقبرة للمسلمين، فتم ذلك"[6].

ولم يستطع اليهود أن يحصلوا على أراضٍ زراعية يمارسون فيها الزراعة، لأنه لم يكن هناك فائض في الأراضي يمكن أن يُعطى لهم، يدلُّ على ذلك الفتن التي وقعت في الأندلس في وقتٍ مبكر بسبب الصراع على الأرض بين المستقرِّين

---

(1) جوايتاين، دراسات، ص212-213.

(2) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.266.

(3) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.266; LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.26.

(4) ذكر ذلك آشتور. لكنه لم يرجع ذلك إلى مصادر معينة، ولم يأتِ بأدِلَّة تثبت قوله. وأرى صحة هذا القول والدليل عليه عندي أن المصادر الإسلامية ذكرت أنَّ المسلمين اعتادوا عند فتحهم للمدن الأندلسية على نقل اليهود إلى قصباتها وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً. ومن غير المعقول أن ينقلوهم إليها دون أن يقدِّموا إليهم بيوتاً يسكنون فيها، وهي على ما أعتقد من البيوت الفارغة التي فرَّ عنها أصحابها.
ينظر رأي آشتور: ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.16, 266.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص26.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص26.

الأوائل من المسلمين، والمسلمين الذين قدموا إلى الأندلس من الشام سنة (122هـ=739م)[1]، بأمرٍ من هشام بن عبد الملك[2] لـ"سدِّ إفريقيا وضبطها"[3].

وعندما قدم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس سنة (125هـ=742م)، واجتمع عليه أهل الأندلس، لم يجد في مدنها أرضاً فائضة يعطيها لهم، ولذلك اضطَّر إلى إعطائهم من الأراضي والأموال التي كانت في يدِ العجم. يقول ابن الأبار أن أبا الخطار "لم يقدِّم في ولايته الأندلس شيئاً على تفريق جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد عن دار الإمارة قرطبة، إذ كانت لا تحملهم... وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة، وبقي العرب البلديون من الجند الأُوَل على ما بأيديهم من أموالهم، لم يعرض لهم في شيئٍ منها"[4]. ويقول ابن عذاري: "وفرَّق أهل الشام على الكُوَر، ونظر لسواهم أيضاً بأحسن النظر، فأنزل أهل دمشق بإلبيرة، وأهل الأردن بَرية، وأهل فلسطين بشذونة، وأهل حمص بإشبيلية، وأهل قنسرين بجيان، وأهل مصر بباجة، وبعضهم بتدمير. وكان إنزالهم على أموال العجم من أرضٍ ونَعَم"[5].

كما أنَّ خروج اليهود مرهقون مادّياً من حكم القوط لم يمكّنهم من شراءِ أراضٍ زراعية يتولُّون زراعتها. وقد تغير هذا الوضع قليلاً في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حيث أدّت التمرُّدات في العديد من مناطق الأندلس[6] إلى تغيير في ملكية الأراضي الزراعية، فقد سيطر المتمردون على معظم أراضي الخمس الخاصة بالدولة، وفقد كثيرٌ من أصحابِ الأملاك الواسعة أملاكهم، وخشي آخرون على أراضيهم فأخذوا يعرضونها للبيع بسعرٍ زهيد، وكان ذلك واضحاً في جنوبي الأندلس، وإضافة إلى ذلك فإن تقسيم الأراضي بين الورثة على أساس أحكام الشريع الإسلامية، قد أدَّى بمرور الوقت إلى ظهور إقطاعيات صغيرة، وقد أدَّى ذلك كلّه إلى قدرة اليهود على الحصول على الأراضي عن طريق الشراء[7]. كما أنَّ اشتغال قسم من اليهود في عددٍ من المجالات المربحة كالتجارة والصناعة، جعل بعضهم أغنياء، ومكنهم من شراء الأراضي. وقد ساعد اليهود على زراعة أراضيهم تدفق المهاجرين اليهود من الشمال الأفريقي إلى الأندلس، وكون معظم المهاجرين اليهود من الفقراء الذين شكلوا عمالة زراعية رخيصة[8].

وتُظهر بعض النوازل التي وردت إلى كلٍّ من فقهاء المسلمين وأحبار اليهود امتلاك البعض من يهود الأندلس البساتين والأراضي الزراعية. ومن ذلك، السؤال الذي وجِّه إلى ابن سهل الأندلسي الذي نصّه: "الجواب -رضي الله عنك- في مسلمٍ اشترى جناناً من يهوديين"[9].

---

[1] مجهول، أخبار مجموعة، ص42-49؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص31-32.
[2] مجهول، أخبار مجموعة، ص36؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص30.
[3] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص30.
[4] ابن الأبار، الحلّة السيراء، جـ1، ص61-63.
[5] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص33.
[6] عن هذه التمردات وآثاراها. ينظر: ابن عذاري: البيان المغرب، جـ2، ص102-192.
[7] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P. 266-267.
[8] IBID,VOL.1, P.267.
[9] ابن سهل الأندلسي، الأحكام الكبرى، ص65.

وقول ابن سهل أيضاً: "سئلتُ عن يهودي حبس على ابنته فلانة البكر في حجره وولاية نظره جميع القلعة التي بموضع كذا وحدّها كذا، ونصف القلعة التي بموضعِ كذا، وحدَّها كذا..."[1].

ووجِّه سؤال إلى الحبر موسى بن حنوخ جاء فيه أنَّ يعقوب تزوَّج ليَّا (LEAH) ، وأنها أنجبت له بنات، وتزوَّج في وقت لاحق من راحيل فأنجبت له البنين، وقد وهبت له راحيل عقاراً دون أيّ تقدير لقيمته، ولاحقاً قام ببيع تلك الأرض، وعوض راحيل عنها بعقارٍ آخر كان يملكه، وكتب لها صكّاً لتوثيق هذه التغييرات، وبعدها قدم يعقوب لبناته من ليا عند زواجهنَّ الأرض التي صارت ملكاً لراحيل، كما قدَّم لزوجته ليا أرضاً عن متأخِّر مهرها، وهو لم يعطِ لابنه بنيامين أرضاً من أملاكه، بل من أملاكِ راحيل[2].ويظهر تساؤل آخر يهودياً عجز عن تسديد دينه ليهودي آخر فقدَّم إليه مزرعة الكروم التي يمتلكها كرهن، إلى أن يسدِّدَ دينه من محصولها[3]. وتبيِّن هذه التساؤلات أنَّ العديد من المزارعين اليهود كانوا لا يمتلكون غير الأراضي الزراعية لتوريثها لأبنائهم[4].

وقد مكنتنا ردرد الأحبار في القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين من الحصول على معلومات تتحدث عن نشاط زراعي ليهود الأندلس، ومن ذلك أنهم مارسوا حراثة الأرض، وأنهم زرعوا الحبوب وأشجار الفاكهة وكروم العنب، وأنَّ الفقراء منهم كانوا يعملون عمالاً في مزارع وحقول الأغنياء. إذ ورد سؤال يتعلق بيهودي اقترض مالاً، وعندما عجز عن تسديده، اتفق مع المقرض أن يسقط عنه الدين مقابل العمل في كرومه[5].

ووردّ سؤالٌ من يهود الأندلس في منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى الجاؤون نطروناي بن هيلاي في العراق يطالبون فيه بالسماح لهم بتقليم كرومهم في أيام عيد الفصح بأيديهم أو بأيدي عمالٍ من غير اليهود، وذلك لأن هذه الأيام التي يمنع فيها العمل تعدُّ أنسب أوقات لتقليم الكروم في الأندلس، وقد أفتى لهم نطروناي بجوازِ ذلك[6].

وأعتقد أنه من الأسباب التي جعلت يهود الأندلس يولون الزراعة شيئاً من الاهتمام، وجعلتهم يختلفون عن الكثير من يهود العالم، الذين كانوا يجهلون الزراعة، ولا يهتمون بها:

1- كان امتلاك الجنان والبساتين إحدى مظاهر الغنى عند أمراء المسلمين وأثريائهم في الأندلس، وكان سكان الأندلس غير المسلمين يحرصون على تقليد المسلمين باعتبارهم سادة البلاد، وعندما حقق بعض اليهود الغنى عن طريق التجارة قاموا بشراء بعض البساتين، وكان من الطبيعي أن يهتموا بأشجارها حتى لا تتلف، وتفقد بساتينهم قيمتها.

2- إنَّ كثرة اليهود في الأندلس، واختلافِ قدراتهم، وثقافاتهم جعلهم يتوزعون بين مختلف فروع النشاط الاقتصادي، فكان منهم من عمل بالزراعة.

---

[1] م.ن، ص68؛ قارن: الونشريسي، المعيار، جـ7، ص59-60.
[2] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.268.
نقلاً عن: . TSHUBHOT GONE MIZRAH U-MAARABH, ED, J,MULLER, BERLIN, 1888, NO.175
[3] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, 268.
نقلاً عن: . TSHUBHOT , NO.201
[4] IBID,VOL.1, P.268.
[5] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.270.
نقلاً عن: . TSHUBHOT , NO.197-198
[6] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.270.

3- إنَّ التواجد الطويل لعدد كبير من اليهود في أرضٍ خصبة كثيرة الأنهار والأمطار كأرض الأندلس دفع بعضهم إلى ممارسة الزراعة.

4- أعطتِ الشريعة الإسلامية التي عمل بها في الأندلس لليهود الذّميين، حقّ التملُّك، وحق ممارسة كل فروع النشاط الاقتصادي، وضمنت لهم حماية أموالهم وأملاكهم، وقد شجع ذلك اليهود على امتلاك بعض الأراضي والبساتين وزراعتها.

ثالثاً: النشاط الصناعي والمهني لليهود في الأندلس

اشتهرت الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، بجودة وتطور صناعاتها، فقد أبدع المهندسون والحرفيون المسلمون، وطوَّروا وابتكروا، فخرجت من تحت أيديهم أروع المنتجات، وأعجب المبتكرات، حتى ذاع صيتهم[1]. وتسابق الأثرياء في مختلف أرجاء العالم على شراء صنائعهم[2].

وقد نقل المقري عن ابن حزم شهادة له في ذلك حيث يقول: "إنَّ أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الصّورية"[3]، كما نقل عن ابن غالب قوله في أهل الأندلس: "وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، ومقاساة النَّصب في تحسين الصنائع"[4]، وقوله: "ومتى دخلوا في شغلٍ عملوه في أقرب مُدَّة، وأفرغوا فيه من أنواع الخدمة والتجويد، مايميلون به النفوس إليهم، ويصيرُ الذكر لهم... ولا يدفع هذا عنهم إلاَّ جاهل أو مبطل"[5]. ومما يدلُّ أيضاً على شهرة الصناع المسلمين في الأندلس أنَّ خلفاء بني عبد المؤمن الموحدين اعتمدوا عليهم في تطوير مدينة مراكش إذ ينقل المقري عن ابن سعيد قوله: "إنَّ حضرة مراكش هي بغداد المغرب، وهي أعظم ما في برِّ العدوة، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مَدةِ بني عبد المؤمن، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم، وذلك مشهور معلومٌ إلى الآن"[6].

كما عمرت مدينة تونس وتطورَّت في عهد سلطانها يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص، وأصبحت شبيهة بالأندلس، عندما جلب إليها ذلك السلطان الصناع من الأندلس، "ووجوه صنائع دولته لا تكاد تجدهم إلاَّ من الأندلس"[7].

ومن أسباب التقدُّم الصناعي في الأندلس أنَّ حكامها هيأوا للصناعة أسباب النجاح، فشجعوا الصناع، وأقاموا المناطق الصناعية، ومن ذلك دار الصناعة التي بناها وأتقن بناءها الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله (300-

---

1) الإصطخري، المسالك والممالك، ص35؛ ياقوت، معجم البلدان، م1، ص245؛ المقري، نفح الطيب، م1، ص206-207؛ م3، ص374؛ الحميري، الروض، 127، 202؛ أرسلان، الحلل السندسية، جـ1، ص239-240.

2) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.272.
ينظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص240-241.

3) المقري، نفح الطيب، م 3، ص151.

4) م.ن، م3، ص151.

5) م.ن، م3، ص152.

6) المقري، نفح الطيب، م3، ص152-153.

7) م.ن، م3، ص152-153.

350هـ=912-961م) في الجزيرة الخضراء[1]، ودار صناعة الحديد، ودار صناعة السفن التي أقيمت في شلطيش قرب مدينة لبلة[2]، ودار الصناعة في طرطوشة[3].

في هذه البيئة، وبين الصناع المسلمين المبدعين، عاش يهود الأندلس قروناً عِدَّة. ويبدو أنهم حاولوا تقليد المسلمين في الصناعات المتميزة لكنهم فشلوا في ذلك بسبب كفاءة الصناع المسلمين، وقدرتهم على المنافسة. ويقدم المقري رواية تبين كيف أبدع عبد الرحمن الزرقال البيلتان اللتان عُدَّتا من غرائب الأندلس، وكيف حاول يهوديٌ أن يسرق سرَّهما. وهما حوضان في جوف النهر الأعظم بطليطلة، "يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه. وذلك أنَّ أول انهلال الهلال يخرج مِنهما يسير ماء، فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع، ولايزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبعة ليال، فيكون فيها نصفها، ولاتزالُ كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يومٍ وليلة نصف سبع، حتى يتم القمر واحداً وعشرين يوماً، فينقص منهما نصفهما، ولايزال كذلك ينقص في كل يومٍ وليلة نصف سبع، فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لايبقى فيهما شيئ من الماء، وإذا تكلَّف أحدٌ حين تنقصان أن يملأهما، وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك من جنبهما حتى لا يبقى فيهما إلاَّ ما كان فيهما في تلك الساعة، وكذا لو تكلَّف عند امتلائهما إفراغهما ولم يبق فيهما شيئاً ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين". وقد فسدت حركة البيلتين بعد سقوط طليطلة في يد ألفونسو، وقيل إنَّ سبب فسادهما أن حنين بن ربوة اليهودي المنجم"أراد أن يكشف حركة البيلتين فقال له: أيها الملك، أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتنحسران في الليل، فلما قلعت لم يقدر على ردِّها، وقيل: إنه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت، ولم تزل الأخرى تعطي حركتها"[4].

ولم يفلح يهود الأندلس إلا في الصناعات والمهن التي زهد فيها المسلمون، وذلك كصياغة الذهب والفضة، حيث يشير أحد الأمثال الأندلسية إلى أنّ معظم الصاغة كانوا من اليهود، وإذا تعامل مسلم بهذه الحرفة احتقره الناس وازدروه[5].

وقد اهتم اليهود بالصياغة في الأندلس، حتى وصلت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي إلى مستوى جلب لمنتجاتها شهرة كبيرة[6].

واهتموا كذلك بالدباغة والصباغة، وتدل أسماء شوارع الأحياء اليهودية القديمة في مدن الأندلس على ممارسة يهود الأندلس لهاتين المهنتين. ففي الحارة اليهودية في إشبيلية، هناك إلى الآن ساحتان تعرفان

---

[1] الحميري، الروض، ص223.

[2] م.ن، ص344.

[3] م.ن، ص391.

[4] المقري، نفح الطيب، م1، ص206-207.

[5] الزجالي، أبو يحيى عبيد الله بن أحمد، أمثال العوام في الأندلس، حققها ونشرها: محمد بن شريفة، ق1، (1975م)، ص216.

[6] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.274.

باسم: "موقع الدباغين"، وهما بلازا دي لوس كورتيدوز (PLAZA DE LOS CURTIDORES)، وبلازا دي لوس زورادورس (PLAZA DE LOS ZURADORES) [1].

ومن الملاحظ أنّ هاتين الساحتين تقعان بالقرب من المكان الذي كان يقوم عليه سور المدينة، مثلما هي العادة في المدن الأندلسية خلال العصور الوسطى، حيث اعتادت السلطات أن تضنع الصناعات القذرة في مكان بعيد عن قلب المدينة[2]. ويعرف أحد شوارع الحي اليهودي في إشبيلية حت اليوم بـ"شارع الصباغين" كالي دي لوس تنتس (CALLE DE LOS TINTES)[3]. كما تدل أسماء الشوارع في الحي اليهودي في سرقسطة، على أنه في تلك الطائفة اليهودية الكبيرة كان هناك عدد كبير من الصباغين والدباغين[4].

وعمل يهود الأندلس في الخياطة والنسيج والأقمشة والدلالة في الأسواق، وفي نسخ الكتب وتجليدها، وأساكفة، وحمالين وكيالين[5]، وفي صناعة الخمور[6].

ويلاحظ أن اليهود امتهنوا العمل في مجال تصنيع الأحذية وإصلاحها في العديد من المدن الأندلسية وخصوصاً في سرقسطة[7]، ومن بين أسماء اليهود من مدينة ليون في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يظهر اسم عائلة أشخافا (ASHKHAFA) التي تعني بالعربية "الإسكافي". ولدينا حالة تدل على أن يهودياً أندلسياً كان يرتزق من هذه المهنة، وقد هاجر إلى المملكة النصرانية في الشمال الأسباني[8]. كما تشير إحدى وثائق جنيزة القاهرة، إلى أنّ يهودياً أندلسياً كان يعمل إسكافياً في الأندلس، ثم هاجر إلى مصر ومارس مهنته فيها[9].

وعند التأمل في صناعات اليهود ومهنهم نجد ان معظمها بسيطة، ومن النوع الوضيع الذي ترفّع المسلمون عنه، وقد بلغ ترفع مسلمي الأندلس عن هذه الصناعات والمهن حداً جعل بعض الفقهاء يفتون

---

(1) IBID, VOL.1, P.273.
نقلاً عن: GONZALEZ DE LEON, NOTICIA HISTORICA DEL ORIGEN DE LOS NOMBERS DE LAS CALLES DE SEVILLA (SEVILLE, 1839), P.95, 145-146.

(2) IBID, VOL.1, P.273.

(3) IBID, VOL.1, P.274.

(4) ASHTOT, THE JEWS, VOL.1, P.274.

(5) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص418؛ ابن الأحمر، إسماعيل، بيوتات، فاس الكبرى، (الرباط، دار المنصور، 1973م)، ص24؛ الحميري، الروض المعطار، ص44؛ الزغول، جهاد غالب، الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، رسالة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الأردنية -قسم التاريخ، 1994م، ص90؛ عبد العزيز، هشام فوزي، يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، مجلة دراسات أندلسية، تونس، ع15، رمضان، 1416هـ-1996م، ص102.

(6) ابن عمر، يحيى، أحكام السوق، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، راجعه وأعده للنشر: فرحات الدشراوي، (تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1975م)، ص96.

(7) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.274.

(8) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.274.

(9) جوايتاين، دراسات، ص172.

برد شهادة من يتحرّف بها من المسلمين، حيث يقول ابن فرحون أنه لا تجوز شهادة من "يتحرّف بالحرف الدنيئة اختياراً، ويكون ممن لا يليق به ذلك، كدباغة وحجامةٍ وحياكة، وكناسة، فأما أربابها وفاعلها مضطراً فلا يقدح فيه[1].

ويقول ابن عبدون: "ويجب أن لا يحك مسلم يهودي، ولا النصراني، ولا يرمي زبله، ولا ينقي كنيفه: فاليهودي والنصراني كانوا أولى بهذه الصّنع، لأنها صنع الأرذلين"[2].

ولا يعني ذلك أن هذه المهن كانت حكراً على اليهود، فهناك إشارات مختلفة إلى أنّ عدداً من المسلمين قد عملوا بها[3].

[1] تبصرة، الحكام، جـ2، ص179.
[2] رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ص48.
[3] ابن فرحون، تبصرة الأحكام، جـ2، ص238-239، 241، 245، 265؛ الشنتريني، الذخيرة، ق2، م1، ص210.